



أولوية العمل على النظر

حسن حنفي*

هل للنظر أولوية على العمل؟

الدعوى النقيضة، للنظر الأولوية على العمل، فإنها دعوى تظهر في لحظات تاريخية معينة عندما يستحيل العمل ثم يأتي النظر تعويضاً عن هذا العجز، وتفريغاً للطاقة في ميدان آخر أكثر أمناً. عندما تُسدّ طرق العمل لا تجد الطاقة أمامها إلا أن تظهر في النظر بوصفها طريقاً فرعياً حتى ينزاح السد، وتعود الطاقة إلى مسارها الطبيعي في العالم من خلال الفعل الإنساني.

في الحضارة الإسلامية، صحيح أن أول ما نزل من القرآن ﴿اقرأ﴾¹، ولكن القراءة لا تعني التعرف على الخطوط، قراءة المكتوب. فقد كان جبريل يعلم أن الرسول أمي لا يقرأ ولا يكتب؛ إنما القراءة هي التعرف على أفعال الله في الطبيعة ﴿اقرأ﴾ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق². والعلم فعل التعليم ﴿اقرأ وربك

* مفكر و فيلسوف مصري.

1- الآية 1، العلق/96.

2- الآيتان: 1-2، العلق/96.

الأكرمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ¹. والنَّظَرُ في القرآن ليس مجرد تأمل ومعرفة نظرية؛ بل هو إِبْصَارٌ ونظر بالعين. ليس فكراً مجرداً؛ بل هو إعمال للحس، نظر للطبيعة والناس. وهو بداية السلوك والتوجيه في العالم، وليس التأمل النظري الخالص. النَّظَرُ هو الإِبْصَارُ ﴿وَتَرَاهُمْ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾²، والنَّظَرُ في الطبيعة أيضاً لأخذ العبرة ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾³، والنَّظَرُ إلى الحيوان ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾⁴، والله أيضاً ينظر كيف يعمل الناس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾⁵. فالنظر علم. والله عالم، والإنسان عالم. وهو أيضاً نظر في الآثار كعظمة وعبرة، تنظر النفس ماذا قَدَمَتْ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ﴾⁶. والنَّظَرُ إلى سُنَنِ المجتمع والتاريخ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولِينَ﴾⁷. وهو أيضاً انتظار، كما أَوَّلَ الْمُعْتَزِلَةَ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾⁸؛ أي منتظرة للشواب أو العقاب، وذلك مثل انتظار الساعة، وانتظار النعيم، وانتظار العذاب. وهو الاشتقاق نفسه ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾⁹.

دعوة القرآن إلى طلب البرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾¹⁰؛ إنما هو تحدٍّ لاستحالة وجود البرهان على الكذب والبهتان. وعندما يدعو القرآن إلى

1- الآيات: 5،4،3، العلق/96.

2- الآية 198، الأعراف/7.

3- الآية 6، ق/50.

4- الآية 17، الغاشية/88.

5- الآية 14، يونس/10.

6- الآية 21، غافر/40.

7- الآية 43، فاطر/35.

8- الآيتان: 22، 23، القيامة/75.

9- الآيتان: 15-14، الأعراف/7. ورد لفظ «نظر» ومشتقاته في القرآن (129) مرة أكثرها بمعنى الإبصار.

10- الآية 64، النمل/27.

التعقل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾¹ وإلى التفكير ﴿أَفَلَا تَفَكَّرُونَ﴾² فإنَّ القصد هو الاعتبار والعظة؛ أي دلالة الواقع للاستفادة به في الحياة العملية وليس تشييد بناء نظري خالص كبديل عن الواقع. المرّة الواحدة التي ورد فيها فعل «فكر» يُقرن بالقرّار وبالفعل ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾³، والباقي كلّهُ «التفكير»؛ أي التدبّر في آيات الله في الكون وهي أغلب الاستعمالات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁴. والتفكير في خلق السماوات والأرض ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁵. والتفكير في الناس ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾⁶. والتفكير في النفس ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾⁷. والتفكير فرادى وجماعة ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى قُرْآنِيٍّ﴾⁸. وقد يكون التفكير في التاريخ وأحوال الأمم والشعوب بعد سماع قصص الأنبياء ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁹. فلا يوجد تفكير نظري؛ إنّما التفكير تفكير في شيء.

قد ورد لفظ «العقل» في القرآن أكثر الاستعمالات في صيغة استفهام استنكاري ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾¹⁰ وفي المضارع أكثر من الماضي، كحقيقة ثابتة أبدية وليست كحقيقة زمانية ماضية. وبالإضافة إلى الصيغة الاستفهامية الاستنكارية هناك صيغة التمني ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾¹¹، والصيغة الشرطية ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾¹². والأهم

1- الآية 169، الأعراف/7.

2- الآية 50، الأنعام/6.

3- الآية 18، المدثر/74.

4- الآية 3، الرعد/13. ورد لفظ «فكر» ومشتقاته في القرآن (28) مرّة أغلبها بمعنى التفكير في الآيات.

5- الآية 191، آل عمران/3.

6- الآية 184، الأعراف/7.

7- الآية 8، الروم/30.

8- الآية 46، سبأ/34.

9- الآية 176، الأعراف/7.

10- الآية 32، الأنعام/6.

11- الآية 73، البقرة/2.

12- الآية 118، آل عمران/3. ورد لفظ «عقل» في القرآن (49) مرة، 29 منها استفهام استنكاري، والماضي (أفلم تعقلون) مرة واحدة.

هو الموضوع الذي يفكر فيه العقل. يأتي كلام الله أولاً، ثم الآخرة والطبيعة، ثم الأحداث التاريخية والمجتمع، ثم الأفعال والأمثال والوصية. ويتطلب العقل الفعل، وعدم أمر الناس بأعمال البرّ دون فعل ذلك ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾¹. والعقل النظري هو الذي يوجه العقل العملي ويمنع من الضلال ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾². وهو الذي يمنع من الهلاك يوم القيامة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾³.

إذا صح ما يرويه الصوفية من أن «أول ما خلق الله خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل، أدبر فأدبر، وعزتي وجلالي ما خلقت إلي أعز منك» فإن العقل هنا هو العقل العملي، العقل الإرادي الذي يطيع. وطلب الحديث عدم التفكير في ذات الله والتفكير في آثاره ومخلوقاته؛ إنما هي دعوة إلى التفكير في الطبيعة من أجل اكتشاف قوانينها، والسيطرة عليها من أجل إعمارها، والتوجه إلى ما هو أنفع وأكثر يقيناً. فخبير الواحد يعطي معرفة ظنية، ولكنه يؤسس عملاً يقينياً. الفكر تفكير؛ أي فكر منعكس على الذات، تأمل وتدبر. الفكر تفكير في النفس وهو التفكير. وهو أيضاً تفكير في الطبيعة والكون⁴.

لقد ورد لفظ «عقل» في الحديث بمعناه الاشتقاقي الحسي عقل البعير؛ أي ربطه. فالعقل رباط وعلاقه وليس عقلاً من دون رباط يهيم في أي واد. هو عقل موجه نحو غاية. وفي غياب العقل يكون: البله، والجنون، والأسر. والصبية والحيوانات لا تعقل. والنساء ناقصات عقل طبقاً للرواية المشهورة «ناقصات عقل ودين» وتمرد عائشة عليه بأنها أعدل النساء. والعقل للكلمات وللكتب؛ أي للوحي المقروء أو المدون. ويفهم بالعقل والقلب، والعقل للشعائر والعبادات لفهم دالاتها ومقاصدها. وأفضل إنسان ما اجتمع فيه العقل والنسك⁵.

1- الآية 44، البقرة/ 2.

2- الآية 62، يس/ 36.

3- الآية 10، الملك/ 67، الآخرة، الطبيعة (3)، حوادث، مجتمع (2)، أفعال، أمثال، وصية (1).

4- استعمل لفظ «فكر» في الحديث (10) مرات.

5- ورد لفظ «عقل» في الحديث حوالى (150) مرة، نصفها للبعير وبعضها للنساء والصبيان والمجانين.

كما أتضح في علم أصول الدين عندما جعل المتكلمون موضوع العلم ليس الذات الإلهية؛ بل الطبيعة والنظر في ظواهرها ومكوناتها وجواهرها، وحركاتها وعللها. وبعد ذلك، تأتي الأدلة على وجود الله؛ فالنظر في الطبيعة سابق على النظر في الله، والبحث في المحسوس سابق على البحث في المعقول. ومشاهدة المرئي سابق على اللامرئي، الذي لا يعرف إلا عن طريق قياس الغائب على الشاهد؛ بل إن نظرية الذات والصفات والأفعال، لب النسق الأشعري؛ إنما تقوم على قياس الغائب على الشاهد، قياس الذات الإلهية على الذات الإنسانية، في الإنسان حقيقة وفي الله مجاز. فالإنسان عالم قادر حي سميع بصير متكلم مرید بالحقيقة، والله كذلك بالمجاز كما قال ابن الأبيدي اللغوي قديماً، وكما يروي الأشعري في «مقالات الإسلاميين». والنبوة فعل في التاريخ وحركة فيه، وتحقق لحقائتها في توالي الأزمان. ليست النبوة فقط معرفة نظرية؛ بل تحقق عملي وحركة تاريخية تساعد على تقدم الشعوب. والمعاد ليس مجرد إيمان بالبعث والنشور؛ بل هو استعداد له بالعمل الصالح. والإيمان والعمل والإمامة كل ذلك يشير إلى تحقق الوحي في التاريخ، في الفرد والجماعة، في المواطن والدولة.

في أصول الفقه، وبالرغم مما يبدو على الأدلة الشرعية الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس من طابع استدلائي إلا أن الكتاب نشأ في المكان والزمان، في «أسباب النزول» و«الناسخ المنسوخ». الواقع يسأل والوحي يجيب. والسنة أيضاً التحقق النموذجي الأول للوحي في الواقع، وللشريعة في المجتمع، وللنبوة في الدولة. والإجماع أمة في التاريخ، وشعوب في الزمان والمكان. لكل إجماعه طبقاً لظروف العصر دون إلزام اللاحق بالسابق. والاجتهاد بالرغم مما يبدو عليه من طابع استدلائي، استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها اليقينية إلا أنه يقوم على التعليل، لتعليل الأفعال ومعرفة مكوناتها وعللها. والأشكال الحرة للقياس مثل: الاستحسان، والاستصلاح، والاستصحاب؛ إنما تعتمد على المصالح المرسله في العالم خارج العقل تحقيقاً لمنافع الناس.

عرض له الحكماء أيضاً في الأخلاق التأملية مثل: ابن سينا، ومسكويه. وهي في الحقيقة أخلاق نظرية طبقاً لقسمة قوى النفس إلى ثلاث: القوة الشهوية وفضيلتها العفة، والقوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة، والقوة العقلية وفضيلتها الحكمة. ومن التوازن بين هذه القوى تنشأ فضيلة رابعة هي العدالة. وأعلىها الحكمة. وبصرف

النَّظْر عن مصدر تلك القسمة، أفلاطون أو غيره، إلا أنها عُرِضت على العقل فقبلها، والعقل أساس النقل. وهو القاسم المشترك بين القرآن واليونان، بين الشريعة والحكمة، بين الدين والفلسفة. في الظاهر، تبدو الأخلاق نظرية تأملية. وفي الحقيقية، هي أخلاق عملية تبدأ من النفس؛ كي تنتهي إلى تقوى القلب.

بالرغم من أن المدينة الفاضلة عند الفارابي يترنح على قممها الملك الفيلسوف، والنبي، والإمام، ويقع في قاعدتها العمال والفلاحون والصيادون، وما بينهما الجند والعلماء إلا أن ذلك نوعاً من تقسيم العمل، والتدرج في السُلطة. الكل عمل سواء من يعمل بعقله، أو من يعمل بيده.

إن المعرفة الإشراقية عند الحكماء، أو النور، الذي يقذفه الله تعالى في القلب عند الصوفية ليست معرفة نظرية خالصة؛ بل هي نتيجة لإعمال القلوب، وتصفية النفس؛ فالعمل يسبق النظر. ومن أراد أن يعرف مثل معرفتنا فليجرب مثل تجربتنا كما قال الغزالي في «المنقذ من الضلال».

في العلوم النقلية الخمسة: القرآن، والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه، اثنان منها عمليان؛ السيرة والفقه، وثلاثة منها نظرية؛ القرآن، والحديث، والتفسير. وهي نظرية في الظاهر عملية في الباطن. فالقرآن رسالة عملية للفعل والتحقق وحمل الأمانة وأداء الرسالة. وقد تمّ جمعه وترتيبه بفعل البشر. والحديث تفصيلات وإيضاحات عملية للقرآن، جمعه الرواة. ومن شروط الرواية تطابق النظر مع العمل عند الراوي. والتفسير لا يهدف فقط إلى إعطاء مزيد من المعلومات التاريخية، أو اللغوية، أو التشريعية عن القرآن؛ بل يهدف إلى توجيه الأمة وإصلاحها كما هو الحال في تفسير «المنار» لرشيد رضا، و «ترجمان القرآن» لأبي الأعلى المودودي، و «في ظلال القرآن» لسيد قطب.

العلوم العقلية الرياضية والطبيعية الخالصة تبدو في الظاهر أبنية معرفية وهي في الأصل علوم عملية. فالحساب؛ إنما نشأ لضبط الموارث، والهندسة لبناء المساجد، والفلك لمعرفة مواقيت الصلاة، والحج، والاهتداء بالنجوم في الأسفار. ونشأ الطب لمعالجة جرحى الفتوحات، والكيمياء لصناعة الأدوية، والطبيعة لصناعة السلاح.

في الحضارة اليونانية، لم يضع فيثاغورث فقط أسس علم الحساب؛ بل كان صاحب نحلة صوفية عملية تقوم على التطهير. ونظرية المثل عند أفلاطون تبدو في الظاهر أنموذجاً لأولوية المعرفة على الوجود مع أنها استقراء للكليات من

الجزئيات طبقاً للجدل الصاعد، كما هو الحال في الفنّ المصريّ القديم، الذي نقله أفلاطون إلى نظرية المعرفة وعلاقتها بالوجود.

بل إنّ المنطق، الذي يُعدّ خالدة أرسطو، وأعظم ما عبّر عن عبقرية اليونان؛ إنّما هو تجريد لممارسات السوفسطائيين، وتنظير لجدل سقراط معهم، وتحليل لأشكال القول دون مضمونه. وهو مرتبط أشدّ الارتباط بخصائص اللغة اليونانية، كما لاحظ المسلمون منذ الشافعي في «الرسالة» حتى ابن تيمية في «الردّ على المنطقيين» و«نقض المنطق».

لا فرق بين الطبيعيّات والإلهيات؛ فهما علم واحد يتجاذبه جدل السلب والإيجاب. المقولات واحدة، الحركة والسكون، الجوهر والعرض، الصورة والمادة، القوّة والفعل، مرة إثباتاً للطبيعة ونفيًا لما بعد الطبيعة فتنشأ الطبيعيّات، ومرة نفيًا للطبيعة وإثباتاً لما بعد الطبيعة فتنشأ الإلهيات.

ترجع أولويّة النظر على العمل إلى نزعة معرفيّة إشراقية صوفيّة خالصة بدأها أفلوطين عندما اعتقد أنّ الفعل ضعف في التأمل، يفيض عن الواحد بفعل التأمل وليس بفعل الخلق. وربما كان ذلك رد فعل على المسيحية ووقوعها في التشبيه، الله المشخّص والخلق بالفعل. وربما كان أثرًا من آثار الغنوصية الشرقية.

استمرّ في تلك الدعوة أوغسطين باحثًا عن الحقيقة سواء في حواراته الفلسفيّة أم في تنظيره للعقائد المسيحية. وأوغسطين بعد تحوله إلى المسيحية كان يعرف الحقيقة مسبقًا، ثمّ استخدم ثقافته الأدبية والفلسفية لتبريرها. كان هدفه عمليًا وليس نظريًا، الدفاع عن المسيحية ضدّ الشكّك والمانويين والدوناتيين والوثنيين وكل خصوم الإمبراطورية الرومانية، فقد كان مفكّر السلطان.

استمرّ ذلك التيار الإشراقيّ الأفلاطونيّ طوال العصر الوسيط المتقدّم عند القديس بونافنتورا في «طريق الرّوح إلى الله». وتحوّل إلى نزعة صوفيّة خالصة تبدأ بمجاهدة النّفس، وتصفية القلب. فالعمل شرط النظر. وتحوّل إلى شعار «الإيمان بحثًا عن العقل» عند القديس أنسيلم، الإيمان أولًا ثمّ البرهان ثانيًا؛ ما يقتضي أيضًا تصفية القلب قبل صفاء الذهن.

ثمّ بدأ عصر الإحياء في القرن الرابع عشر، إحياء الآداب القديمة، تخلّصًا من الفلسفة المدرسيّة والعقائد المسيحية وصولًا إلى الأساطير اليونانية وعظمة الإنسان. لم تكن نظرية في المعرفة بقدر ما كانت نهضة حضارية جديدة لإنهاء العصر

الوسيط وبداية فجر العصور الحديثة.

كان الإصلاح الديني في القرن الخامس عشر ليس فقط نقداً للعقائد «الكاثوليكية»؛ بل احتجاجاً دينياً على القديم وسلطة التراث والتوسط بين الإنسان والله، واضعاً بدائل مضادة، الكتاب وحده، حرّية التفسير، والكتاب المقدس باللغة الوطنية، وحرّية المسيحي، والعلاقة المباشرة بين الإنسان والله، والبساطة في بناء الكنائس دون بقايا الوثنية الرومانية القديمة. كانت البروتستانتية مرحلة في مسار التاريخ، وتحولاً فعلياً في الوعي الأوروبي.

جاء عصر النهضة في القرن السادس عشر ليغيّر ليس فقط مصدر المعرفة، من القديم إلى الجديد، ومن بطليموس إلى كبلر وجاليليو ثم إلى نيوتن، ومن النقل إلى العقل، ومن النفس إلى البدن؛ بل ليغيّر مسار التوجّه الحضاري العملي من العودة إلى الماضي إلى التوجّه نحو المستقبل بعد أن كسب المحدثون المعركة ضدّ القدماء في الفكر والأدب والفنّ والعلم وفي كل مظاهر النشاط الإنساني.

في بداية العصور الحديثة أسّس الوعي الأوروبي مشروعه المعرفي في «الكوجيتو» الديكارتية «أنا أفكر فأنا إذن موجود». وبدأ الاعتزاز بالمعرفة الجديدة و«العلم الجديد»، و«لعلوم الجديدة» و«الأورجاتون الجديد»، والتحقّق من صدق تلك المعارف باتفاقها مع العقل ومع الطبيعة. والحقيقة أنّ ذلك المشروع المعرفي الضخم؛ إنّما كان الهدف منه السيطرة على الطبيعة وتأسيس المجتمع المدني من أجل السيطرة على العالم. فقد واكب ما سُمّي بالكشوف الجغرافية منذ أواخر القرن الخامس عشر بعد سقوط غرناطة ونهاية فترة الحكم الإسلامي في المغرب مع بني الأحمر وبدايته في المشرق مع محمد الفاتح. لم يكن مشروعاً نظرياً خالصاً؛ بل كان وراء الالتفاف حول القارات من البحار والمحيطات بعد أن فشل الدخول إلى القلب عن طريق البحر الأبيض المتوسط كبحيرة شبه مغلقة. وتمّ الالتفاف حول نصف الكرة الغربية من الشرق من الساحل الأطلنطي ثمّ الاندفاع نحو الغرب حتى الساحل الغربيّ على المحيط الهادئ. ثمّ تمّ الاندفاع جنوباً حول أفريقيا ثمّ شرقاً إلى جنوب شرق آسيا. ومن ثمّ، الاستيلاء على العالم القديم كلّه في أفريقيا وآسيا. العقل المطلق والسيطرة المطلقة صنوان. والعقل الشامل والحكم الشامل قرينان. وكان ذلك كلّه لخدمة التجارة عبر البحار في العصر التجاري ما قبل المرحلة الرأسمالية.

ثم تحوّل العقل من أداة معرفيّة ومنهج للكشف إلى عقل اجتماعي يفجر الأنظمة السياسيّة اللاعقليّة مثل: الأنظمة الكنسيّة، والملكيّة. فقامت الثورة الفرنسيّة بعد أن تحوّل العقل إلى تنوير، والتنوير إلى ثورة. واكب العقل الملكيّات، وواكب الثورة الجمهوريّةات، وكان عرض ماركوز في «العقل والثورة». ووضع العقل مثل التنوير؛ الحرّيّة، والإخاء، والمساواة، والعدالة الاجتماعيّة، والطبيعة، والتقدّم؛ أفضل ما أخرج الوعي الأوروبي للإنسانيّة.

كما امتدّ العقل من الإنسان إلى المجتمع، امتدّ مرّة ثانية من المجتمع إلى التاريخ، وتحوّل إلى عقل تاريخي مكتشفًا قانون التاريخ ومسار التقدّم. وأصبح لكلّ شيء عند هيجل تاريخ؛ الفلسفة، والدين، والفن، والجمال. وأصبح تاريخ العالم هو قضاء العالم، فيه يتحقّق كلّ شيء، ويصدر الحكم على كلّ شيء¹. ثم جاء القرن العشرين ليكمل المشروع المعرفي الغربي في الظاهريّات والظاهريّات في تأويل آخر نزعة إشراقية تطهيريّة. فالقاعدة الأولى «الرد»، أو «التوقّف عن الحكم»، أو إخراج الواقع الماديّ خارج دائرة الانتباه هي إبعاد للعالم وزهد فيه حتى يظهر عالم الماهيات وينكشف في النفس. فالحقيقة كشف، كما يقول تلميذه هيدجر مطبقًا منهج الأستاذ. والوجود إنارة. كما أن هوسرل في أواخر حياته، في المرحلة الثالثة من فلسفته منذ «التجربة والحكم» عاد إلى العالم تأكيدًا على شعار فينومينولوجيا، «العود إلى الأشياء ذاتها»، والبحث عنها في التجارب السابقة على الحمل المنطقيّ. كما أنّ المخطوطات، التي تركها والمُصنّفة تحت حرف K تعطي وجهة نظر أخلاقيّة دينيّة صوفيّة للعالم، ونظرة إيمانيّة مسيحيّة قلبية ما دفع عددًا من الأنصار إلى تأسيس فينومينولوجيا الدين.

ظهرت دعوات عنصريّة في الغرب تدّعي أنّ الغرب وحده هو القادر على التنظير، والبحث المعرفي الخالص دون أدنى اهتمام عمليّ مصلحيّ نفعيّ. البحث عن الحقيقة المجردة مثل النقطة في الهندسة، التي لا طول ولا عرض ولا عمق لها. وهي في الوقت نفسه أساس الهندسة.

جعل ماكس فيبر التنظير Rationalization خاصيّة فريدة في الوعي الأوروبي بعد أن درس تاريخ الديانات، واكتشف الطابع العمليّ لديانات الشرق. ومن ثمّ، فالماركسيّة بنقدها النظر نزعة غريبة على الفلسفة الغربيّة. والبحث عن الأنماط

1- هي عبارة هيجل الشهيرة: Weltgeschichte ist Weltgericht.

المثاليّة Ideal Types هو البحث في ما يتحكّم في العالم. النظر سلطة، والعمل ضعف. والحقيقة أنّ ماكس فيبر يريد السلطة؛ أي يريد العمل عن طريق النظر كعمل غير مباشر، وليس عن طريق العمل المباشر؛ أي الممارسة الفعلية.

سار في التيار نفسه هوسرل مؤسس الفينومينولوجيا المعاصرة عندما جعل التنظير Theoretization صفة خاصة في الوعي الأوروبي، البحث عن الحقيقة المجردة، وبالنظر المجرد عن مثال أفلاطون والماهية الخالصة مع أن مثال أفلاطون هو الخير، وهي مقولة عملية. لذلك، عدّ أفلاطون مؤسس الفلسفة وليس سقراط؛ لأنه شابه النزعة الأخلاقية. وعدّ سقراط أقرب إلى الشرق منه إلى الغرب. فالشرق أخلاقي عملي صوفي ديني، في حين أنّ الغرب معرفي نظري عقلي «علماني».

قد تزدهر الدراسات الصورية الخالصة في المنطق والرياضة في النظم الشمولية نظراً لصعوبة التعرّض للواقع الاجتماعي والسياسي خوفاً من الاضطهاد. فأثر العقل الاتجاه نحو العلوم الصورية الخالصة، كما كان الحال في بولندا إبان الحكم الشيوعي. فالنظر هروب من العمل وتعويض عنه. كما ازدهرت الرياضيات في أواسط آسيا بعد أن توقفت الفتوحات وضعفت الخلافة، ولم يعد ينشغل الناس بهموم الدنيا. ولم يعد أمامهم إلا أمور الآخرة، النظريات الخالصة في العلوم، أو تمني الفوز والنجاة في التصوف، أو «الحكمة المتعالية» و«شاهد الربوبية»، كما هو الحال عند صدر الدين الشيرازي.

في الوقت الزاهن، غابت فلسفات العقل وفلسفات الفعل معاً، ولم يعد الوعي الأوروبي يعطى شيئاً؛ فبعد تحطيم العقل وسيادة اللامعقول، ظهرت التفكيكية لتقضي على ما تبقى من وظيفة للعقل وفككته وقضت على التمرکز حول العقل Logocentricity وكلّ ما أبدعه العقل من قانون ونظام. وتأتي ما بعد الحداثة أيضاً لتقضي على كل شيء، العقل والفعل والبدائية من الصفر بعد أن تنبأ نيتشه بعصر العدمية الشاملة.

يبدأ الفعل من جديد خارج الوعي الأوروبي في حركات التحرّر الوطني، وفي الصحوة الإسلامية، وفي حركات المقاومة لما تبقى من احتلال استيطاني في فلسطين وجنوب لبنان، بعد انتهاء النظام العنصري من جنوب أفريقيا في العام نفسه، الذي قُسمت فيه فلسطين 1948م، بعد تقسيم الهند في 1947م، واحتلال كشمير، وما زالت محتلة حتى الآن.

ربما انتهى العقل والفعل من الغرب، وبدأ الفعل في الشرق قبل أن يزدهر العقل تأكيداً على الكوجيتو العملي في الشرق في مقابل الكوجيتو النظري في الغرب. وإذا كان المشروع الغربي قد بدأ بالعقل والسيطرة؛ فإن المشروع الشرقي قد بدأ بالفعل والتحرر. لذلك، يشتد عليه الآن الحصار والغزو والتهديد والتهميش حتى تظل السيطرة للغرب باسم ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات، وصراع الحضارات، ونهاية التاريخ.

فهل يعي العرب في أي مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟

أولوية العمل على النظر

هو اختيار رئيسي في كل حضارة. وهو الاختيار وراء قيامها وانتشارها قبل أن تهرم وتتوقف، فيتحول الهم العملي إلى هم نظري. هو الاختيار، الذي يبني الدول ويقوم العمران، كما حدث في عصر الفتوحات الإسلامية الأولى¹. لذلك، تظهر أمور المعاد النظرية في لحظات الضيق والعجز، كما ظهرت في تاريخ بني إسرائيل أثناء الأسر البابلي، وفي المسيحية أثناء سيطرة اليهود والرومان في فلسطين، وعند الصوفية عندما استحال المقاومة الفعلية بعد استشهاد أئمة آل البيت وسيطرة آل عثمان. وفي لحظات الخلاص تعود هذه الأخريات، من الخيال إلى الواقع، ومن عالم التمني إلى عالم الفعل، وتحرك الناس نحو الخلاص القريب، كما هو الحال في المهديّة والمشيانية ولدى فرقة الأنابابتست Anabaptism ولدى الحركات الألفية Millenarianism، التي تعتقد بظهور المخلص كل ألف عام مرة، والتي كان يتنسب إليها نيوتن.

في اللغة العربية يتشابه لفظا «علم» و «عمل». يتكوّنان من الحروف نفسها (ع، ل، م). ومعهما لفظ ثالث «عالم»؛ أي الكون مع إضافة (ا) ممدودة بعد العين دلالة على الأفق والاتساع. ويتأويل من نوع ابن عربي أو هيدجر، العلم والعمل والعالم أبعاد ثلاثة لحقيقة واحدة: النظر، والعمل، وميدان التحقق.

لقد ورد لفظ العمل في القرآن مئات المرات. ومن حيث الاشتقاق ذكر العمل

1- يُروى أنّ إبراهيم باشا، وهو في الشام أرسل لوالده محمد على كتاباً في التاريخ وجده هناك؛ كي يقرأه ويستفيد منه. فأرسل إليه محمد على قائلاً: أنت تقرأ التاريخ، أما أنا فأصنع التاريخ.

فعلا أكثر منه اسما ما يدل على أنّ العمل فعل. والمخاطب الجمع أكثر الصيغ للدلالة على الخطاب¹. وأكثر الأزمنة المضارع ما يدل على أنّ الفعل حقيقة مستمرة². وفي الاسم، الجمع أكثر من المفرد ما يشير إلى العمل الجماعي³. والإضافة إلى الضمير، خاصة ضمير الجمع أكثر من غير المضاف. وكذلك الأمر في اسم الفاعل⁴.

من حيث المضمون، يدفع القرآن الكريم نحو العمل ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾⁵. وقد ورد لفظ «العمل» في القرآن مئات المرّات ليفيد ارتباط الإيمان بالعمل الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾⁶، وأن فوز الإنسان في الآخرة بالعمل الصالح ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى﴾⁷، وأن العمل الصالح له قيمته في ذاته بصرف النظر عن الإيمان والكفر ﴿لَعَلِّيْ اَعْمَلُ صَالِحًا فِيْ مَا تَرَكْتُ﴾⁸. الاستحقاق قانون جزاء الأعمال ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾⁹، والإنسان مسؤول عنه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾¹⁰. ويتم في وقته المحدد كالصلاة ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّ فَعْمَلٍ﴾¹¹، والعمل عمل

1- الصيغ الفعلية: تعملون (83).

2- المضارع: يعملون (56)، يعمل (14)، نعمل (6)، أعمل (4)، تعمل (2). الماضي: عملوا (73)، عملت (5)، عملتم، علمته (1). الأمر: إعملوا (9)، إعمل (2).

3- أعمالهم (27)، أعمالكم (9)، عمل (17)، عمله (5)، عملكم (4)، عملهم، أعمال (2)، عمليّ (1).

4- عاملين (عاملين) (8)، عامل (عاملة) (5).

5- الآية 105، التوبة / 9.

6- الآية 96، مريم / 19.

7- الآية 88، الكهف / 18.

8- الآية 100، المؤمنون / 23. ورد لفظ «عمل» ومشتقاته (359) مرة منها ارتباط الإيمان بالعمل الصالح (73).

9- الأيتان: 7-8، الزلزلة / 99.

10- الآية 134، البقرة / 2.

11- الآية 53، الأعراف / 7.

اليد ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾¹. وهو عمل في الأرض ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾². وعمل في البحر ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾³، ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾⁴. والقول والإيمان والعمل شيء واحد ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾⁵، والعمل فردي ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾⁶؛ لأن المسؤولية فردية، والجزاء فردي، والاستحقاق فردي؛ فالعمل عمل الفرد. الدعوة إلى العمل صريحة وواضحة في القرآن ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾⁷، ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾⁸، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾⁹.

يظهر في القرآن لفظ «فعل». العمل أقرب إلى العمل في الخارج والتأثير في العالم، في حين أن الفعل أقرب إلى العمل الذاتي، التعبير عن جوهر الذات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالْمَعْرُوفِ﴾¹⁰. وهو ما يوجد أيضًا في اللغات الأجنبية في التمييز بين العمل Action، والفعل Act. وترد معظم استعمالات لفظ «فعل» في القرآن بمعنى سلبى لتطهير الذات¹¹؛ وهي أفعال الظالمين، والسفهاء، والمبطلين، والكافرين، والجاهلين، والضالين، والمجرمين، والخاسرين، والصاغرين، والنادمين. في حين أن الأفعال الإيجابية قليلة، أفعال المتقين والصابرين¹². وهي أيضًا أفعال فردية، أصحابها مسؤولون عنها. والله يفعل أيضًا بعقابهم، كما فعل

1- الآية 35، يس/36.

2- الآية 129، الأعراف/ 7.

3- الآية 14، يونس/ 10.

4- الآية 79، الكهف/ 18.

5- الآية 33، فصلت/ 41.

6- الآية 139، البقرة/ 2.

7- الآية 135، الأنعام/ 6.

8- الآية 61، الصفات/ 37.

9- الآية 5، فصلت/ 41.

10- الآية 234، البقرة/ 2.

11- ورد لفظ فعل (108).

12- الأفعال السلبية (99)، الأفعال الإيجابية (9).

بعباد وشمود وأصحاب الفيل. وهي أفعال المنكر، والفحش، والبغضاء، والكراهية، والضلال، والكفر، والافتراء، والفساد في الأرض، والفتنة، والظلم، والقتل، والجهل، والإثم، والخسران، والبؤس.

الفعل أيضاً مرتبط بالقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾¹. وفي هذا المعنى نقد الله سلوك الشعراء ﴿لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾²، وهو مرتبط أيضاً بالإرادة. لذلك، كان الله ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾³، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾⁴، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾⁵، وكان الإنسان المتشبه بالله كذلك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾⁶.

كما ورد لفظ «العمل» في الحديث. وفي معظم الاستعمالات مرتبط بالعلم النافع وضرورة تطابق علم العالم مع أفعاله وأقواله، «تعلموا، تعلموا، فإذا علمتم فاعملوا». فالعلم نهاية العمل، العلم بداية والعمل نهاية، «لا تكن بالعلم عاملاً حتى تكون به عالماً»⁷. العلم مقدّمه والعمل نتيجة. ولا يوجد علم نظري إلى ما لا نهاية «فإذا عرفتم منه فاعملوا». والعلم قراءة القرآن، وقراءة القرآن تؤدي إلى العمل به، «من قرأ القرآن وعمل بما فيه»، «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به». وهو عمل في الأرض لتعميرها وفي الدنيا تحقيقاً لرسالة الإنسان واستخلافه في الأرض. هو العمل اليدوي المنتج «خير الكسب كسب يد». هو العمل المأجور وليس المستغل «أعطوا العامل أجره قبل أن يجفّ عرقه». ولا ينقص من أجره شيئاً قيمة عمله «لا ينقص من أجر العامل». هو العمل في الزمان، في الوقت المحدد، في الساعة واليوم والفترة والعمر. لذلك، كانت العبادة في مواقيت الصلاة، والصيام،

1- الآيتان: 2-3، الصف/61.

2- الآيتان: 225-226، الشعراء/26.

3- الآية 107، هود/11.

4- الآية 14، الحج/22.

5- الآية 47، النساء/4.

6- الآية 4، المؤمنون/23.

7- ورد لفظ «عمل» في الحديث حوالى (280) مرة. أكثرها مع العمل وأجر العمل، وجزاء العمل، والكسب والقدرة.

والزكاة، والحج. وكان الوحي أيضًا في مواقيت طبقًا لمراحل التاريخ، وأكملها المرحلة الأخيرة، التي اكتملت فيها النبوة. وأفضل الفعل أدومه وإن قل، وهو العمل الضروري، وفي الوقت نفسه الاختياري، الذي يقوم على التطوع والسبق والمنافسة في الخير. وأفضل الأعمال على ظهر الفرس: الجهاد في سبيل الله. هو العمل طبقًا للقدرة والطاقة «اعلموا فكل ميسر لما خلق له». وهو ضد الاتكال. ولئن جمع حاطب ليل وباع بالنهار خير من أن يسأل الناس أعطوه، أو منعه. ولم يشأ الرسول البشارة بالجنة حتى لا يتكل الناس، «اعملوا ولا تتكلموا». والعمل سُنَّة، إتباع وإبداع، تقليد وتجديد، تواصل وانقطاع في التاريخ. وهو عمل يُجازى الإنسان عليه يوم القيامة طبقًا لنوعه صلاحًا أم فسادًا، حسنًا أم سيئًا، طبقًا للنية الصادقة، ولوجه الله أم طمعًا في مدح الناس؟! وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا غُفِرَتْ لَهُ «العمل بالنية» و«إنما الأعمال بالنيات». العلوم الإسلامية العقلية الثقلية أربعة: اثنان عمليان، واثنان نظريان. العمليان: علم أصول الفقه، وعلوم التصوف. والنظريان: علم أصول الدين، وعلوم الحكمة.

في علم أصول الفقه غاية الوحي العمل، تحويل الوحي إلى نظام للعالم. الفعل صيغة أمرية، إيجابًا أم سلبيًا. والمقاصد للامتثال والتكليف. والأحكام للوجوب، أو للتحريم ضرورة (الواجب والمُحَرَّم)، أو اختيار (الندب والكرهية)، أو طبيعة (الإباحة). ولا يجوز تكليف ما لا يُطاق مع التخيير بين العزيمة والرخصة طبقًا للقدرة. وكل مسألة لا ينتج عنها أثر عملي، كما يقول الشاطبي في «الموافقات» عارية عن العلم. وتطابق عمل المفتي مع قوله شرط للإفتاء. وتحقيق المصالح العامة هو الهدف الرئيس من العلم بصرف النظر عن طرق الاستدلال.

التصوف نزعة عملية تقوم على الرياضة والمجاهدة. الشريعة قبل الطريقة، والطريقة قبل الحقيقة. والمقامات جهد مبذول وعمل محصل قبل ورود الأحوال من عين الجود. المقامات مكاسب، والأحوال مواهب. هو تصفية للقلب، وجلاء للمرأة قبل أن تنعكس عليها صور المعارف وحقائق العلوم. لا يعرف الله إلا ببطن جائع وببدن عار. التصوف علم وعمل، نظرية وتجربة. هناك تصوف نظري وتصوف عملي، والعملية شرط النظري.

في علم أصول الدين، جعل الخوارج العمل جوهر الإيمان. ومن لا عمل له لا إيمان له. ومرتكب الكبيرة الكافر؛ لأن عمله خرج عن إيمانه، ولا توسط بين

الاثنين. وحكم الكافر هو الإقصاء من جماعة المسلمين؛ بل وجواز قتله إن لم يستتب. والعمل عند المعتزلة جزء مُكَمَّل للإيمان. الإيمان بلا عمل نفاق، أو معصية ينافي الإخلاص والصدق. فالتوسط هنا في صالح العمل. وهو أساس قانون الاستحقاق في المعاد ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾¹. وفي الأصول الخمسة عند المعتزلة، العدل جوهر التوحيد. الجوهر بلا عدل ظلم، والعدل بلا توحيد قد يُؤدِّي إلى نسبية العدل. ومن مظاهر العدل: الحرّية، والعقل. يثبت وجود الله بالتوحيد، ويثبت وجود الإنسان بالحرّية. «أنا حرّ. إذن، أنا موجود». فالكوجيتو الإسلامي عمليّ وليس نظريّاً. الإنسان يتفرّد عن الله بخلق الأفعال. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساس علاقة الحاكم بالمحكوم، مثل الدين النصيحة. في تلك الحالة قول الحق فعل، فالساكت عن الحق شيطان أخرس. وأعظم شهادة مقولة حقّ في وجه إمام ظالم؛ بل إنّ من صفات الله القدرة والإرادة. ومن صفات الإنسان؛ كي يكون حرّاً قادراً على الفعل الاستطاعة قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل، قبل الفعل استعداداً، ومع الفعل إنجازاً، وبعد الفعل أثراً وامتداداً. ثمّ أتت المسائل النظرية بعد ذلك؛ الذات، والصفات، والأسماء، والأفعال، أو النبوة والمعاد. فعلم أصول الدين عمليّ النشأة وإن كان نظريّ النهاية.

الحكمة قسمان: حكمة نظرية؛ المنطق، والطبيعيّات، والإلهيات. وحكمة عملية: النفس، والأخلاق، والاجتماع، والسياسة. الأخلاق علم عمليّ. لذلك، ارتبطت بالتربية، كما هو الحال عند مسكويه في «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق». والاجتماع وصف لأنواع المدن وتقسيم العمل والتركيب الطبقيّ، كما هو الحال عند الفارابي. وإذا كان اليونان قد أضافوا «تدبير المنزل»؛ أي الاقتصاد كونه علماً عمليّاً، فإنّ الحكماء قد أضافوا السياسة أحياناً مرتبطة بالاجتماع، وأحياناً أخرى بالتاريخ كونه تراكمًا سياسياً وميداناً تتحقّق فيه قوانين السياسة.

من العلوم النقلية الخمسة: القرآن، والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقهاء. السيرة والفقهاء من العلوم العملية الخالصة؛ فالسيرة أنموذج للتّباع وقدوة للاحتذاء. والفقهاء قسمان: عبادات ومعاملات، وكلاهما سلوك؛ العبادات سلوك رأسيّ مع الله، والمعاملات سلوك أفقيّ مع الإنسان وفي المجتمع.

إذا كانت الحضارة الإسلامية وسطاً بين الشرق والغرب فقد استطاعت الحضارة الشرقية الإفلات من هذا الإشكال بطابعها العملي. الشنتوية عبادة الإمبراطور في اليابان. والكونفوشيوية تنظيم علاقات الفرد بالآخرين في الأسرة والمجتمع في الصين. والبوذية قدرة على السيطرة على الأهواء والانفعالات. وديانات فارس المانوية والزرادشتية نزعات أخلاقية عملية من أجل انتصار الخير على الشر، والنور على الظلمة. ولا توجد نظرية مسبقة للفن، أو الصناعة في اليابان. هناك ممارسات عملية واتحاد بالطبيعة، وإحساس بالجمال. الإبداع عملية آتية وليس تطبيقاً لنظرية مسبقة في الجمال. لذلك، غابت الأخريات في الديانات الشرقية. ولا يوجد فيها عالم لا مرئي يضحى في سبيله بالعالم المرئي. لا يوجد إلا العالم المرئي، والإنسان جزء منه ويعيش فيه. يتحد معه ويشعر به. فالطبيعة خير معلم.

إذا كانت الحضارة الغربية قديمة ووسيلة وحديثة، ويونانية ومسيحية وحديثة معاصرة فقد بدأت الحضارة اليونانية السابقة على سقراط بنزعة عملية تحت أثر الشرق القديم في النحلة الأورفية، التي ارتبطت بالأساطير وبمقاومة الموت. والأساطير اليونانية السابقة على الفلسفة وأحد مصادرها كلها صراعات بين الآلهة والبشر، أو بين الآلهة والآلهة، أو بين البشر والبشر. وأوليس رمزها. فالأسطورة Mythos سابقة على الفلسفة Logos. والأسطورة صياغة خيالية لأفعال الأبطال وصراعات الشعوب.

منذ أن وعى سقراط أن «العلم فضيلة والجهل رذيلة» بدأت أولوية العمل على النظر. فالعلم ليس بحثاً نظرياً مجرداً؛ بل هو سلوك عملي. إن المعرفة النظرية عن ماهيات الأشياء؛ إنما تأتي عن طريق الحوار القائم على التهكم والتوليد، والحديث مع الناس في الأسواق، والمشاركة في تجارب الحياة اليومية، بالرغم من نقده للسوفسطائيين، الذين لا يريدون البحث عن المعاني المجردة، ويكتفون بإثبات الحركة بالتحرك بالفعل دون أدلة نظرية، أو بحث عن معانيها، كما يريد سقراط. الفلسفة عند أفلاطون هي تعلم الموت؛ أي القدرة على الزهد في الدنيا من أجل معرفة الحقيقة، والتحول من الدنيا إلى الآخرة طبقاً لأسطورة الكهف المعروفة. فالأخلاق شرط المعرفة، والعمل أساس النظر؛ بل إن أفلاطون فيلسوف عملي تربوي في «الجمهورية»، يريد تأسيس المدينة الفاضلة، والانتقال من النظر إلى العمل، ومن التأمل إلى الممارسة، ومن الكهف إلى الدولة. كان فيلسوف

ورجل دولة، صاحب نظرية ومطبق لها.

«الإرادة الخيرة» عند أرسطو، ثم بعد ذلك عند كانط توجه عملي. فهي إرادة طيبة؛ لأن الطبيعة خيرة، كما عرض روسو فيما بعد. وقد أثرت «الأخلاق إلى نيقوماخوس» في البشرية بقدر تأثير المنطق.

بعد نسق أرسطو، هذا الصرح الشامخ للمنطق والطبيعة، وما بعد الطبيعة تحوّلت الفلسفة اليونانية بعده إلى مدارس خلقية عملية كالرواقية والإبيقورية، تجعل الفلسفة أسلوب حياة حتى لو كانت على طرفي نقيض، الزهد في الدنيا، أو التكالب عليها، إشار الآخرة على الدنيا، أو إشار الدنيا على الآخرة؛ فالتطور الطبيعي للفكر من النظر إلى العمل، ومن التأمل إلى الممارسة.

في العصور الوسطى، قامت العقائد المسيحية كلها على القنوط والخلاص، سقوط آدم والخلاص بالمسيح. خرج آدم من الجنة إلى الأرض بفعل الغواية ولضعف الإرادة. وحمل الخطيئة يتوارثها أبناءه جيلاً بعد جيل. لذلك، أرسل الله المسيح ليخلصه من غواية الشيطان وما ترتب عليها من سقوط؛ فالمسائل النظرية عن طبيعة السيد المسيح؛ إنما أتت بعد المسائل العملية. الخلاص بالسيد المسيح، الذي أتى فداء للبشر. وقد ظهر في نشأة المسيحية تياران في الصلة بين النظر والعمل تيار يعقوب الحواري كاتب رسالتين في العهد الجديد في آية مشهورة له «ليس المهم أن تقول إلهي إلهي ولكن المهم من يطبق كلامه في العمل». وتيار بولس، الذي تحوّل إلى المسيحية بعد صعود المسيح إلى السماء وكان من كبار مضطهدي أنصاره، وظهر المسيح له وهو في طريقه إلى دمشق؛ وهو تيار لاهوتي فقهي نظري نظراً؛ لأن بولس كان حبراً يهودياً من مدرسة الجميل المشهورة بالتأويل. حوّل بولس كل خصائص التوراة إلى صفات: المسيح، الحق، الألوهية، الخلاص. وحوّل المسيحية الأخلاقية العملية عند متى ومرقص إلى مسيحية لاهوتية نظرية مثل: مسيحية يوحنا. فبولس هو المسؤول عن تحوّل المسيحية الأخلاقية العملية إلى مسيحية لاهوتية نظرية. وهو ما لاحظته ابن حزم أيضاً في «الفصل» ثم رينان بعد ذلك في «مصادر المسيحية» خاصة في الجزء عن «بولس».

قامت العقائد اليهودية على الأساس العملي نفسه؛ أن الله اختار ذلك الشعب ووعده بتلك الأرض والمدينة والمعبد والهيكل، وأيده بالنصر والغنم. وهو عهد إلهي مطلق، من طرف واحد، ودون مقابل من إيمان، أو إخلاص، أو تقوى، أو

طاعة للشريعة. يكفي إيمان بعضهم؛ كي يتم خلاص المجموع. لذلك، نقض الله عهده معهم، كما نقضوا عهدهم معه. وجعل العهد لكل البشر عهداً فردياً مشروطاً بالطاعة، عهداً أخلاقياً وليس عهداً مادياً. اليهودية ليس بها عقائد نظرية. والعهد اختيار عملي. جوهرها الشريعة، وهو تطبيق عملي في الفرد والجماعة.

في العصور الحديثة، بالرغم مما يبدو عليها في بداياتها عند ديكارت وبيكون من البحث المعرفي المنهجي إلا أنها بدأت أيضاً بالعمل. فعند ديكارت، الإرادة أوسع نطاقاً من الذهن، كما يعرض في التأمل الرابع في «التأملات في الفلسفة الأولى». لذلك، يخطئ الإنسان؛ لأنّ العقل لا يستطيع أن يسيطر على كل مظاهر الحياة الإنسانية. يُطبّق العقل في الرياضيات وفي العلوم الطبيعية. أما في الحياة الإنسانية؛ فالإنسان بحاجة إلى «أخلاق مؤقتة» تسيّر أمور حياته طبقاً للعادات، والأعراف، والتقاليد الموروثة، والحس المشترك، والرأي العام. ثم رفض تلميذه اسبينوزا الأخلاق المؤقتة، الدين والسياسة، وطبّق فيهما روح المنهج، فرفض الشيوقراطية، ونادى بالديموقراطية. والمعرفة عند بيكون تبدأ أيضاً بالتخلص من الأوهام الأربعة؛ أوهام الكهف، وأوهام المسرح، وأوهام السوق، وأوهام القبيلة، حتى يمكن تأسيس المعرفة التجريبية الصحيحة. وهو جهد عملي مثل الشك عند ديكارت للوصول إلى اليقين.

ظهرت أولوية العمل على النظر في الفلسفة النقدية عند كانط بالرغم من أن «نقد العقل النظري» يأتي من حيث الترتيب قبل «نقد العقل العملي»؛ فالمعرفة لا تُدرك إلا بالظاهر، أما الباطن فلا يُعرف إلا بالأخلاق. لذلك، صرح في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «نقد العقل النظري»: «كان لزاماً عليّ هدم المعرفة لإفساح المجال للإيمان». والإيمان تقوى باطنية، وعمل صالح، وإرادة خيرة، وأداء الواجب. ونقد كل الأدلة القبلية والبعديّة على وجود الله، وأنها لا تثبت شيئاً سواء كانت استنباطية أم استقرائية، عقلية أم طبيعية، وأنّ الدليل الوحيد على وجود الله، هو القانون الخلقى، أو الغائية في النفس، أو الجلال في الطبيعة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾¹. وفي رسائله، بيّن أنّ هناك عدداً من المسائل النظرية ليس لها إلا حل عملي.

أدرك الفلاسفة بعد كانط روح المذهب الكانطي، وأعطوا الأولوية للعقل العملي

1- الآية 191، آل عمران/3.

على العقل النظري، وللحياة على الفكر، وللإرادة على العقل. جوهر العقل النظري عند فشته المقاومة، «الأنا تضع نفسها حين تقاوم». وعند هيجل الجدل، والجدل ليس فقط في العقل؛ بل في التاريخ. وعند شلنج الوحدة أو الهوية، والهوية ليست مبدأً صورياً؛ بل هي تطابق الروح والطبيعة. وعند شوبنهاور الإرادة، والإرادة ليست مجرد فعل؛ بل هي إرادة الحياة، أو الموت. وأحدثت صورية العقل عند كانط رد فعل في «العاصفة والاندفاع» عند الرومانسيين. وسار في الطريق نفسه الكانطيون الجدد مثل: هرمان كوهين بتطبيق الفلسفة النقدية في عالم الإرادة والعواطف.

ثم أدرك جوته جوهر القضية عندما غيّر أول آية في إنجيل يوحنا «في البدء كانت الكلمة» إلى «في البدء كان الفعل» ليعبر عن روح العصر بأكمله، وألوية الفعل على التأمل، والإرادة على العقل، روح فاوست والعصر الحديث. فالإنسان شيطان، يتميز بروح التمرد والعصيان.

ثم فجر ماركس القضية بعبارة الشهيرة في «البيان الشيوعي»، «ليس المهم فهم العالم؛ بل تغييره». وأصبح الفهم من سمات العقل البرجوازي، الذي يريد الإبقاء على الوضع القائم. الفهم مثل الدين والفلسفة النظرية تعويض عن العجز عن العمل في الدنيا، فتسرب الطاقة إلى أعلى بدلاً من أن تتحقق إلى الأمام. البروليتاريا هي الوريث الوحيد للأفكار. ووحدة العمال «يا عمال العالم اتحدوا» تسبق وحدة المعرفة في «جدل الطبيعة».

بدأت الفلسفة المعاصرة بالتحول من الماهية إلى الوجود، ومن النظر إلى العمل، ومن الفكر إلى الواقع، ومن العقل إلى الفعل؛ بل إنه لا يوجد فيلسوف معاصر لا يبدأ بتحطيم العقل، كما يقول لوكاتش والبدائية بنقيضه. أعلى نيتشه من شأن ديونيزيوس إله الخمر والحياة على أبوللو، إله العقل والحكمة. ودعا إلى إرادة القوة وخلق السوبرمان. وجعل بلوندل العقل هو أحد مظاهر التجلي الإلهي في الإنسان، وأحد تحققات الفكر في العالم. واعتقد برجسون الفكر النظري المجرد، الذي وراء المذاهب الألمانية نقص في الإرادة، وأن المقولات في العقل وقوابله كطفل يلعب بظلال الأشياء بدلاً من أن يلعب بالأشياء ذاتها، وأنها أشبه بشيك بلا رصيد. وأدرك ماكس شيلر أن عالم المثُل ليس معطى جاهزاً؛ بل هو عملية تحويل الواقع إلى مثال Ideation، تتطلب جهداً، كما أثبت مين دي بيران وجود الأشياء عن طريق الجهد والمقاومة.

ثمّ ظهرت الفلسفات البرجماتية سواء تلك، التي تعتمد على المثالية مثل: بيرس، أم التي تعتمد على المنفعة مثل: جيمس، أم التي تقوم على الذرائع مثل: ديوى؛ لتؤكد أهميّة الفعل، وأنّ شيئاً واحداً يتمّ فعله خير من عشرة أشياء يتمّ التفكير فيها. وتجعل الشخصية الفعل أحد أبعاد الوجود الإنساني. وعند ماكس شيلر فعل التضحية وقيمة الشخص أعلى قيمتين في تراتب الفضائل. أمّا فلسفات الوجود فقد اتفقت كلّها على البداية بالوجود الإنساني، بالأنا موجود وليس بالأنا أفكر، كما بين جان بول سارتر في «تعالى الأنا موجود»، ثمّ في الفعل الجماعي التاريخي في «نقد العقل الجدلي».

المنزل يحترق، فمن يُطفئ النار؟

أولوية العمل على النظر أحد متطلّبات الواقع العربيّ المعاصر. المنزل يحترق فمن يطفئ النار؟ والوجود مهدّد فمن الذي يصارع من أجل البقاء؟ والمشروع الصهيونيّ يتحقّق يوماً وراء يوم من احتلال أكثر من نصف فلسطين في 1948م إلى ابتلاع النصف الآخر في 1967م، ومن احتلال جنوب لبنان إلى احتلال الجولان في سوريا، ومن الهجرات الروسية إلى تأسيس إسرائيل الكبرى. فمن الذي يحمي الدار ويذبّ عن الديار؟ وما دوركّل من: الفيلسوف، والمفكر، والمثقف؟ أيقب في فلسفته يعلمها صنعة لجيل قادم من الحرفيين؟! أينظر بفكره الحريق والهدم وتجريف الأراضي، واغتيال الأطفال والنساء والشيوخ وتصفية المقاتلين؟! أيبقى في ثقافته، فالثقافة شيء والعالم شيء آخر، وما شأن عالم الأذهان بعالم الأعيان؟ لذلك، قال الغزالي من قبل: لو أنّي أشعر بثعبان تحت الجبة فهل أسأل: ما طوله؟ ما عرضه؟ ما شكله؟ ما لونه؟ سأمّ أم غير سأمّ؟ أم أنّي أقذفه أولاً خارج الجبة ثم بعد ذلك أنظر إليه وأصفه؟ هنا يسبق العمل النظر في مواقف الخطر، وتهديد الوجود والبقاء.

في الوقت الرّاهن، يشعر الجميع بمدى الامتهان عندما نواجه الاحتلال بالبيان، والاجتياح بمؤتمر القمّة، والعدوان بالشجب والإدانة. فأين الفعل في مواجهة الفعل؟! والألم في مواجهة الألم؟! ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾¹؟ يسهل الكلام، ويصعب الفعل. ويعلو الصوت إذا ما صمت الفعل. هو

نفاق ذاتي، وتعويض نفسي، وإبراء للذمة، وتخفيف من عذاب الضمير. لذلك، اتَّهَمنا في ثقافتنا وتراثنا. وقيل: إنَّ العرب ظاهرة صوتية، وأنَّ بضاعتهم بضاعة كلام. وفي المثل «عصاية تجمعهم وعصاية تفرِّقهم». في حين أنَّ الشعر العربيَّ خيال وكرامة، عزَّة ونخوة، سمو ورفعة. وفي تاريخ العرب «وامعتصماه!» صراخ امرأة في الشام ينتهك الروم حرمتها لخليفة بغداد. وفي الشعر العربيَّ، المهلهل بن أبي ربيعة بعد مقتل أخيه كليب «اليوم خمر، وغداً أمر». وهو طريق ما زال مفتوحاً للحكام العرب إذا ما أراد أحد منهم نصر إخوته في فلسطين.

نظراً لغياب الفعل، الكلُّ يريد أن يضع الكرة في ملعب الآخر، ويعيب عليه سكوته وصمته. يقول السوريون للمصريين والأردنيين: اقطعوا العلاقة مع إسرائيل واسحبوا السفير. ويقول المصريون والأردنيون للسوريين: افتحوا جبهة الجولان فهي ليست أقلَّ من الجنوب اللبناني. ويقول اليمنيون للمصريين: لِمَ لا تفتحوا جبهة في سيناء للتخفيف عن الفلسطينيين؟ ويقول المصريون لليمنيين: احضروا جيوشكم إلى سيناء، وتعالوا لتحرير فلسطين. ويقول العرب للأوروبيين: لماذا لا تناصرون الحقَّ الفلسطينيَّ ضدَّ العدوان الصهيونيَّ، وتقطعون عنهم المعونات، وتوقفون التجارة، ولا تجعلونها من الدول الأكثر رعاية؟ ويقول الأوروبيون للعرب: ولماذا لا تقومون بواجبكم تجاه إخوانكم في فلسطين؟ لماذا لا تمدونهم بالمال والسلاح والدواء والغذاء؟ ولمَ لا تقاطعون إسرائيل تجارياً، وتمنعون قدوم السياح إليكم، وتوقفون خطوط الطيران؟ ويطالب العرب الأميركيين بأخذ موقف الحُكم العادل، والشاهد المنصف، والضغط على إسرائيل للانسحاب من الأراضي المحتلة، والعودة إلى حدود الرابع من حزيران 1967 م. وتقول أمريكا للعرب: ولماذا لا توقفون العنف والعمليات الانتحارية ضدَّ إسرائيل، وتوقفون دعايتكم العدوانية ضدَّ شعب إسرائيل؟ وتطالب روسيا بالتدخل لمصلحة العدل في المنطقة. وتطالب أمريكا روسيا بالتعقل دفاعاً عن شعب إسرائيل من الإرهاب العربي. وفي غياب أيِّ فعل ذاتيٍّ من أيِّ طرف بدايةً بالطرف العربيِّ يتمَّ اجتياح الأراضي الفلسطينية، وتدمير المدن والقرى، وتسوية المخيمات بالأرض. والكلُّ يستصرخ أخيه؛ بل عدوّه. ولم يبق أمام العرب إلاَّ استجداء العدوِّ الأكبر، الخصم والحكم. نظراً لما نحن فيه من مأس وأحزان، وإحساس بالعجز والامتهان، وشعور بالضعف والهوان؛ فإنَّ الحاجة إلى الفعل تبدو ملحةً في وقت يتساءل فيه الجميع:

أين العرب؟ ولما تحرك الشارع العربي تنفس الجميع الصعداء. وشعر كل عاجز أنه تخلى عن عجزه بفعل الآخرين. وأصبح الشارع العربي هو المُخلص من كل ذنوب أنظمة الحكم وأيديولوجيات المُنظرين.

بحثاً عن الفعل في ميدان العجز، بدأ المُنظرون في تحية للشعب الفلسطيني؛ لأنه يأخذ قضيتَه بيده، وأنه يحارب لأول مرة لاسترداد أرضه. فقد حارب العرب بدلاً منه في 1948م، و 1956م، و 1967م. ولحق بثوراته المستمرة قبل النكبة، ثورة عز الدين القسام وما سبقتها من ثورات. فالانتفاضتان: الأولى، والثانية من صنعِه؛ أعطته الأولى السُلطة الوطنية الفلسطينية، وتعطيه الثانية الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

لأول مرة تختفي الحروب النظامية بين جيشين؛ الجيوش العربية متفرقة، أو مجتمعة وبين جيش الدفاع الإسرائيلي، ويحارب شعب جيشاً. وتقف مقاومة شعبية أمام أعتى الجيوش وأقواها عدةً وعتاداً. ولأول مرة تفوق خسائر العدو خسائره في حروب الجيوش النظامية. وتأتي العمليات الاستشهادية في المقدمة، التوحد بين الفعل والوجود. شباب حريصون على الموت قدر حرص العدو على الحياة؛ فالاستشهاد الفلسطيني قمة الفعل في وسط «التخاذل العربي» قمة العجز.

تُحاصر الأنظمة العربية بين المطرقة والسندان، المطرقة الأمريكية بالوعد والوعيد، وقطع المعونات، وإخراج ملفّات حقوق الإنسان والفساد، والسندان غضب الشارع العربي وثورته. وتراهن الأنظمة على الولايات المتحدة الأمريكية ضدّ الشارع العربي. وهو برهان برفيز مشرف نفسه، حاكم باكستان، الذي أثار أن يخسر الشارع ويكسب ودّ الولايات المتحدة لضرب أفغانستان، والقفز فوق آسيا، وإقامة القواعد في قازقستان، وتهديد كلاً من: الصين وماليزيا وروسيا، والوقوف أمام الاقتصاد الياباني والكوري، والاستيلاء على السوق الآسيوي لمنتجات هونج كونج وتايوان وسنغافورة، والوقوف على حافة نفط بحر قزوين، وخوفاً من حصار باكستان وقدرتها النووية بين الهند شرقاً وإسرائيل غرباً، قد يكون الرهان على الولايات المتحدة كسباً للنظام على الأمد القصير، ولكنه خسارة له على الأمد الطويل، إذا ما تحوّلت حركة الشارع إلى ثورة شعبية بمساندة بعض العناصر الوطنية في القوات المسلحة.

في الوقت الرَّاهن، ما دور المثقف؟ يشعر بعضهم بأن المدخل الأيديولوجي

للوّاقع العربيّ المعاصر قد تجاوزه الاجتياح الصهيونيّ لما تبقى من فلسطين. فقد تمّ توحيد المقاومة في اللجنة العليا للمقاومة الفلسطينية. ولم يعد تعدّد الأطر النظرية بين قوميّين وإسلاميّين وليبراليّين وماركسيّين بذي دلالة. ومنذ معركة الكرامة في 1967م حتى انتفاضة الاستقلال في سبتمبر 2000م يصدق علينا ما أنشده نزار:
 الفدائيّ وحده يكتب الشعر
 وكلّ الذي كتبنا هراء

ماذا يغني النظر عن العمل؟ وفيّم الخلاف الأيديولوجيّ بين فرقاء النضال والخطر على الجميع، وأفعال المقاومة تتجاوز الاختيارات الأيديولوجية؟ وبدلاً من الحروب المعلنة وغير المعلنة بين المثقّفين، والتخوين والتكفير المتبادلين يقوم الشهيد بالتوحيد بين الفكر والواقع، بين الحياة والخلود، بين السماء والأرض. الشهيد هو فعل الشهادة وليس منطلقه النظريّ الإسلاميّ، أو القوميّ، أو الماركسيّ، أو الوطنيّ الليبراليّ. الفعل يُوحّد النظريّات، والنظريّات أفعال وهمية.

إنّ التمرس حول البحث النظريّ، والتخندق في التحليل الإبستمولوجيّ، والتستّر بالغطاء المعرفيّ؛ إنّما هو نقص في الالتزام، والأخذ بالأسهل والأحوط؛ فالتحليل المعرفيّ يتمّ في المكتبات وعلى المكاتب، في حين أنّ النضال الوطنيّ يكون في الطرقات ومع الناس. الإبستمولوجيا تنتشر في دور النشر، وتدرّ بالأموال والجوائز العلمية في الخليج. في حين أنّ الفعل يؤديّ إلى السجون والمعتقلات، والاعتقالات والتصفيات. وهو المصير نفسه للفقهاء القدماء. فريق أخذ الصرر، والحلّ، والجاه، والمنصب، والصدارة، والرياسة، فقهاء السلطان، وفريق آخر سجن، وعذب، وصلب، ودبح، فقهاء الأمة والناس.

لذا، إنّ البحث العلميّ والتحليل المعرفيّ يحفّان ويموتان دون الممارسة الفعلية. فالتجربة الاجتماعية للفيلسوف مثل المختبر والمعمل للعالم. لذلك، يُسمّون فريق البحث العلميّ في الجزائر «المخبر» نقلاً عن الفرنسيّين Laboratoire، مخبر علم الاجتماع، مخبر الفلسفة. وقد أكّد معظم الفلاسفة وليس التجريبيّين وحدهم أهميّة الخبرة بصرف النظر عن مستواها ومدى اتّساعها، بين الخبرة الحسيّة، أو الخبرة الحياتية، الخبرة الفردية والخبرة الجماعية. ويتبادل اللفظان الخبرة والتجربة، الخبرة البشرية والتجربة العلمية وأحياناً يتمايزان. وكثيراً ما يسأل الأساتذة الطلّاب أين الباب الأول في رسائلهم عن حياة الفيلسوف وعصره، والظروف الاجتماعية والسياسية، التي نشأ فيها؟ فالفيلسوف ابن عصره. وفي الوقت نفسه، يحلو لبعضهم

التشدد بمصطلح «المثقف العضوي» لجرامشي، مُعتقدين أنهم أنموذجه حتى يلحق بثقافة العصر.

إن الفلسفة رسالة وليست مهنة، قضية وليست حرفة. وأستاذ الفلسفة هو الأمين عليها. صحيح أن مهمته هي التعليم ولكن ليس الصنعة؛ بل ممارسة أفعال الفكر وتحليل الواقع، لا فرق بين المدرج والشارع، بين عالم الأذهان وعالم الأعيان. ليس من المعقول أن يعطى درس في حقوق الإنسان في الأروقة، وتنتهك حقوق الإنسان في المجتمع دون ربط بين هذا وذاك، ودون قياس الفارق بين النظرية والواقع، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن. ليس من المعقول أن يُعطى درس في منطق أرسطو وأشكال القضايا، وضروب القياس المنتج وغير المنتج، والشارع العربي ينتفض، والأراضي تُحتل، والشهداء يتساقطون، والطالب مُشتت بين عقله في الجامعة، وقلبه في الشارع. إنه مُعلم الصنعة وليس شاهد العصر، الذي قد يكون شهيداً فيه. في تلك الحالة، يكون العلم تعويضاً عن الفعل، والصنعة غطاء لغياب الرسالة، والتخصّص الدقيق بديلاً عن العمل العام، وإيثار الأسهل على الأصعب. والجنة محفوفة بالمخاطر.

إن الأستاذ يحمل هموم الفكر والوطن على حدٍ سواء، يقوم بالعلم وبالمواطنة دون تمييز حتى يؤثر في الطالب، فيكون الطالب معه بالعقل والقلب، بدلاً من أن يكون عقله داخل المدرج وقلبه في الشارع والطريق، وحتى يحترم الطالب الأستاذ، ويعلم أنه ليس موظفاً في الجامعة؛ بل صاحب موقف، وحتى لا يعتقد الأستاذ الطالب مشاعباً سياسياً يُبلغ عنه سلطات الأمن، يُعكر عليه صفو العلم، ويمنع الطلاب من التحصيل.

إننا ليس الجيل، الذي سيخرج منه الفلاسفة. فما زلنا جيل عصر النهضة الأول بعد أن كبا بعد مائتي عام ليعود فجر نهضة عربيّة جديدة. ما زال الواقع لدينا مغطى بالأنساق المعرفيّة والقيميّة القديمة. وما زالت الأسئلة الثلاثة، التي جعلها كانط شرط التفلسف: ماذا يجب عليّ أن أعرف؟ ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ ماذا يجب عليّ أن أأمل؟ ما زالت إجاباتها القديمة مطروحة. ومن ثمّ، فلا سؤال. أعرف عن طريق الوحي، وقيمي من أحكام الشريعة، وأملي بالفوز في الآخرة، نيل النعيم وتجنّب العذاب. والأسئلة الكبرى في كلّ فلسفة من أين آتي؟ ومن أين أتى العالم؟ وإلى أين أنتهي؟ الإجابة عنها معروفة. الله موجود، والعالم مخلوق، والنفس خالدة،

تنتظر الثواب والعقاب طبقاً للأعمال. فما دامت الإجابة موجودة فلا سؤال. وما دام لا سؤال فلا تفلسف. فأَيُّ سؤال متنطع: هل لدينا فلاسفة؟ سؤال خارج عن سياقه التاريخي؛ فالفلسفة تبدأ بالسؤال، ويوضع السؤال عندما تغيب الإجابة، والإجابات عندنا جاهزة تعطينا وثاماً معرفياً بيننا وبين الواقع.

لقد نشأت الفلسفة في الغرب في بدايات العصور الحديثة بعد أن تكسّر الغطاء النظري بين القديم والجديد، وثبت أن أنساق أرسطو وبطليموس والكنيسة لا تتفق مع: العقل، والطبيعة، والإنسان، والمجتمع. فبدا الواقع عارياً من أي غطاء نظري. وبدأت التساؤلات والإجابات البديلة. فنشأت الأنساق الفلسفية والتيارات الفكرية للإجابة عن تلك التساؤلات. الفيلسوف بذلك المعنى هو صاحب النسق الفلسفي. وليس لدينا فيلسوف بذاك المعنى، صاحب النسق، واضح نظرية في المعرفة، ونظرية في الوجود، ونظرية في القيم.

إنما الفيلسوف لدينا هو المفكر والناقد، وربما المثقف والأديب، صاحب الموقف النقدي من الموروث القديم، الذي يحاول التخلص من سيطرته، والتحرر من سلطانه، ورفضه كسلطة للتقليد من أجل إفساح المجال للاجتهاد و«الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»، كما قال السيوطي. الفيلسوف هو الذي يعيد بناء التراث القديم؛ بحيث يكون أصلح لروح العصر. ويعيد الاختيار بين البدائل، واختيار بديل أنفع للناس. فما زالت الاختيارات عندنا منذ القرن الخامس الهجري، عصر الغزالي، هي السائدة بالرغم من مرور ألف عام عليها. فيها سقطت دول وقامت أخرى، وانتهت حضارات ونهضت أخرى. وتم اكتشاف نصف العالم؛ أمريكا وأفريقيا. وسقطت غرناطة، وفتحت القسطنطينية. وسقطت الخلافة، واحتلت الأمصار، وتحزرت البلاد ثم عاد إليها الاستعمار من جديد في أشكال جديدة للهيمنة.

الفيلسوف هو الذي يحاول أن ينقل حضارته من مرحلة إلى أخرى، من الإصلاح إلى النهضة، ومن الهيمنة إلى التحرر، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن التجزئة إلى الوحدة، ومن الاحتلال إلى حق تقرير المصير، ومن الظلم الاجتماعي إلى العدالة الاجتماعية، ومن الاغتراب إلى إثبات الهوية، ومن السلبية والأملالة والفتور إلى الالتزام والفعل وأخذ المواقف. الفيلسوف هو ابن عصره، والقادر على تشخيص طبيعة المرحلة، التي تمر بها حضارته، والتأثير في أكبر قدر ممكن من

الناس، ومخاطبة الخاصّة بالقول البرهانيّ، والمثقفين بالقول الجدليّ، والعامّة بالقول الخطابيّ.

الفيلسوف ثانيًا هو الذي يتمثّل الوافد بعد نقله والتعليق عليه وشرحه وتلخيصه وعرضه والتأليف في موضوعاته ثم الإبداع فيه. ولما كان الوافد الحديث هو الوافد الغربيّ وليس الوافد اليونانيّ، فكلّ ناقل له من أجل تمثّله وليس من أجل شيوعه وإذاعته والترويج له ولاء للثقافة الغربيّة، وكل من يشرحه ويلخصه نقلًا له من حضارة إلى أخرى، ومن وظيفة إلى أخرى، وكل من يعرضه ويؤلف فيه ويبعد في موضوعاته ولا يكتفي بحمله فهو فيلسوف.

ليس من مهمّة الفيلسوف، الذي يتعامل مع الوافد الغربيّ نقله وانتزاعه وغرسه من بيئة لزرعها في بيئة أخرى، وبناء مذاهبه ومدارسه في بيئة غير مؤاتية. فقد حاول رؤاد النهضة ذلك ببناء صروح ليبراليّة، أو قوميّة، أو اشتراكيّة، أو حتى إسلاميّة مستنيرة فوق أرضيّة تراثيّة محافظة موروثيّة ترفض الجسم الغريب. فسرعان ما انهارت، وظهر الموروث القديم حاملاً لحركات إسلاميّة محافظة تتهم التنوير بالتغريب. وكلّما تفاقمت الأزمات، وتعاظمت التحدّيات، واتسعت رقعة احتلال الأراضي، وزاد البون بين الأغنياء والفقراء، وازداد التشرذم والتفتّت والتجزئة، واشتدّ التغريب ظهرت الحركات الإسلاميّة كونها المُخلّص من أزمات الأيديولوجيّات العلمانيّة للتحدّيث؛ الليبراليّة، والقوميّة، والماركسيّة.

فكلّ من يأخذ موقفًا نقديًا من الغرب، متميّزًا عنه دون الانبهار به، والذوبان فيه، والترويج لبضاعته، مُحوّلًا الغرب من كونه مصدرًا للعلم؛ كي يصبح موضوعًا للعلم فهو الفيلسوف، كما كان الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، فلاسفة بالنسبة إلى الوافد اليونانيّ، ومسكويه بالنسبة إلى الوافد الفارسيّ، والبيرونيّ بالنسبة إلى الوافد الهنديّ.

الفيلسوف ثالثًا هو الذي يُنظر للواقع تنظيرًا مباشرًا ويُحوّله إلى نصّ. ولا يكتفي بتأويل النصوص القديمة، أو الحديثة وإلا كان عبدًا للنصوص. لا يستطيع أن يرى العالم إلا إذا وضع على عينيه نظارة نص يرى الواقع من خلالها. فلو كانت النظارة بيضاء لظهر العالم أبيض، ولو كانت سوداء لظهر العالم أسود، ولو كانت حمراء لظهر العالم أحمر. والأصدق فينا ما قاله محمود درويش:

واحتمى أبوك بالنصوص

فدخل اللصوص

لذلك، اتَّهَمْنَا بأننا حضارة نصّ، وفكر كتاب مثل أهل الكتاب. ويزهو الغرب علينا بأنّه وحده صاحب حضارة الفعل، وحُجّة العقل بعد أن قضى على حُجّة النَّصِّ. ونحن ما زلنا نعتد على حُجّة النَّصِّ. فالنَّصُّ أساس العقل، كما ورثنا عن الأشعرية القديمة. وعرفنا بالتأويل والاشتباه، والظاهر والباطن والفكر، والازدواجية والنفاق في السلوك، نُظهِر غير ما نُبْطِن، ونُبْطِن غير ما نُظهِر، نقول ما لا نعتقد، ونعتقد ما لا نقول. وهو ما لاحظته القرآن من قبل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾¹، كما نقد القرآن ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾².

الفيلسوف هو الذي يعطينا نظرية في تحرير الأرض المحتلة، ويُقدِّم لنا ثقافة المقاومة، ولاهوت الأرض، وعقائد التحرير. وهو الذي يعطينا نظرية في حرية المواطن، ويبحث عن الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديموقراطية في وجداننا العربي المعاصر، وكما حاول الكواكبي في «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد». وهو الذي يصوغ نظرية ويضع آلية للعدالة الاجتماعية. فأغنى أغنياء العالم منّا. وأفقر فقراء العالم فينا. وهو الذي يضع عقيدة للوحدة لحماية الأمة من التشرذم والتجزئة، كما فعل الرومانسيون الألمان، فشته وهيجل وشلنج تدعيماً للوحدة الألمانية. وهو الذي يدافع عن الهوية ويضع قانوناً للذاتية، كما حاول إقبال ضدّ التغريب، والتميع في الغرب، والاعتراب في الآخر. وهو الذي يعطي نظرية في التنمية المستقلة ضدّ التبعية والمعونات الأجنبية والاستيراد وقيم الاستهلاك. وهو القادر على تجنيد الجماهير وحشد الناس، ونقلهم من اللامبالاة إلى الالتزام، ومن الفتور إلى الحماس، كما حاول الكواكبي من قبل في «أمّ القرى».

الفيلسوف هو صاحب الموقف الحضاري، والذي يعي المرحلة التاريخية، التي تعيشها حضارته، وينقلها من مرحلة إلى أخرى. الفيلسوف ابن عصره، وابن وقته، وابن زمنه، وابن مجتمعه. ليس هو الذي يعيش خارج الزمان، يعلم أرسطو كما يعلم حرفة، ويلقن المنطق، كما يفعل الشيخ مع المريد، والذي ما زال يعيش في

1- الآيتان: 2-3، الصف/61.

2- الآية 188، آل عمران/3.

العصر العثماني.

ليس الفيلسوف هو مؤرخ الفلسفة، الذي يحمل بضاعة يبيعها لمن يشاء لأبناء وطنه ولدور النشر. الفيلسوف هو صاحب الوعي الفلسفي؛ فالفلسفة ليست معلومات فلسفية ينقلها مُعَلِّم إلى تلميذ؛ بل المُعَلِّم، الذي يُمارس فعل التَّفَلُّس؛ وفي فعل التفلسف تتوحد الذات والموضوع. فلا ذات بلا موضوع، ولا أستاذ بلا قضية، ولا موضوع بلا ذات، ولا وطن بلا مواطن.

إنَّ الأستاذ المهني، صاحب الصنعة هو وليد ظروف العصر، البحث عن الإعارات في دول النفط، التي تريد الصنعة لا الرسالة، والحرفة دون القضية، أو التكبُّب بالعلم في الداخل عن طريق الكتب الجامعية إذا ما ندرت الإعارات، كما أنه وليد الخوف في الداخل من بطش الحكام.

كان معظم الفلاسفة في التاريخ كالأنبياء أصحاب قضايا وحملة رسالات، يصدق عليهم مقولة «العلماء ورثة الأنبياء». كان سقراط صاحب قضية تنوير الناس. وأفلاطون حامل رسالة تربية المجتمع الأثيني، وتكوين المدينة الفاضلة. وأوغسطين صاحب موقف الدفاع عن المسيحية ضد الشكك والمانويين والوثنيين في الخارج والفرق الضالة أنصار دوناتوس وآريوس في الداخل. ودافع سيجر البرابنتي باسم الرشدية اللاتينية عن العقل والطبيعة، عن الفكر الحر، والعلم الدقيق. وأراد ديكارت ويكون أن يؤسس المعرفة الجديدة، كما أراد كانط أن يُبين إمكانيات العقل، وهيكل أن يكشف عن قوانين الجدل، وفشته أن يؤسس نظرية في العلم كونها حرية، وماركس أن يغيّر العالم، وهوسرل أن يكمل المثالية الترنسندننتالية منذ البداية في «الكوجيتو» حتى النهاية في «الكوجيتاتوم»، منذ «الأنا أفكر» حتى «الأنا موضوع التفكير».

في تراثنا القديم، كان المُتكلِّمون والفلاسفة والصوفية والأصوليون أصحاب قضايا. كانت الفرق الكلامية أحزاباً سياسية، تؤول العقائد الدينية إلى أيديولوجيات للسلطة القائمة، أو للمعارضة السياسية. وأراد الحكماء تمثّل الوافد داخل الموروث في جدل ثقافي بين الحضارات. وكان الصوفية يريدون الاستمرار في المقاومة، مقاومة النفس، إذا ما استعصت مقاومة الظلم والطغيان في العالم الخارجي. وأراد الأصوليون وضع مناهج للتشريع، ومنطق للاستدلال في ظروف متغيرة، وعصور متوالية.